تطور التعليم في العراق (١٨٥٠– ١٩١٥م)

أ.م.د. حازم مجيد احمد الدوري
جامعة تكريت/ كلية التربية/سامراء

المقدمة

أول حرف خُطَ في الكتابة كان في بلاد الرافدين ، فعرف شعب العراق منذ قرون موغلة في القدم أسلوب التعبير والمضاربة الحسابية وتدوينها . فأسس أول حضارة ، تدل آثارها التي لا تزال شاخصة للعيان ، على عظمة التطور والتحضر الذي وصل إليه شعب العراق . وبعد الفتح الإسلامي وتحرير العراق من السيطرة الفارسية وبتقادم السنين أصبح العراق مركز الدولة العباسية وبغداد عاصمة العالم الإسلامي والعقل المدبرو المسيطر عليه . فاستعاد العراق عافيته العلمية وتربع على قمة الهرم الحضاري والعلمي وبدأ إشعاعه الفكر الفكري يتعدى حدود العالم الإسلامي إلا أنه وبمرور الوقت زالت دولة بني العباس عام (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) وخضع العراق لاحتلالات عديدة من أقوام أقل منه تحضر وأكثر من غيرها همجية إلى إن سيطرت الدولة العثمانية عليه عام (١٥٣٤م) والتي ليست لها في العلم والتعلم حاجة آنذاك فترك التعليم للأهالي أفراداً أو جماعات . لذا وبما إن أساس أهل العراق علما وتعلم وان تعاليم الدين الإسلامي تحث على طلب العلم لأجل ذلك استمر التعليم يسري في عروق أهل العراق ببطء شديد على الرغم من كل المصاعب التي ألمت وأحاطت به إلى أن انفرجت بعض الشيء أساريره في منتصف القرن التاسع عشر إذ بدأت بعدها مرحلة نشوء وتطور للعملية التعليمية بالعراق . فكان لهذه المرحلة أهمية كبيرة من حيث أنها عُدّت مرحلة انبعاث حركة التعليم والتي استمرت لأكثر من نصف قرن تطور فيها التعليم أيضاً بخطىً بطيئة ومع ذلك استثمر العراقيون تلك الخطى البطيئة استثماراً ناجحاً تضاعفت فيه أضعافاً مضاعفة أعداد الدارسين بمدة قصيرة نسبياً فتضافرت مسيرة التعليم الحكومي أو الرسمي جنباً إلى جنب مع مسيرة التعليم الأهلي أو الذاتي التي تمثلت بالكتاتيب – ألملة – والجامع التي استمرت في كل المراحل ومع كل الظروف ولم تنقطع أو تندثر إلا بعد قرنٍ أو يزيد ، لهذا سلط بحثنا المتواضع هذا الضوء على هذه المرحلة التأريخية التي تطور التعليم فيها في العراق .

أفلَتْ شمس العلم عن بلاد وادي الرافدين بعد سقوط حاضرة العالم الإسلامي (بغداد) على يد المغول عام (٦٥٦ هـ – ١٢٥٨م) فتشرد علماؤها واندرست مدارسها وأُغرقت في نهر دجلة كُتبها ، ونهبت واحرقت خزائنها واستباحت عراقتها . فمكثت بغداد تصارع الردى

والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فكان للتعليم النصيب الأكبر من الإهمال . وكانت الدولة العثمانية تعتقد بأن التعليم هو نتاج فردي أو جماعي يخص تلك الجماعات وليس هو من اختصاصها أو يقع ضمن مسؤليتها[١].

من هذا الفهم أو الاعتقاد نلاحظ ضالة تطور التعليم في العراق إذ اعتمد بشكل أساسي على الكتاتيب التي مثلت العتبة المدرسية الأولى في الحياة التعليمية في العراق ، وان المسجد أو الجامع هما المؤسسة التعليمية التي تمارس فيها عملية التعليم وان الملالي هم المعلمون الذين لم ينازعهم أحد في هذا المجال آنذاك[٢] لهذا كانت العملية التعليمية مقتصرة على الكتاتيب والمدارس الدينية .

الكتاتيب :

ان قلة المدارس أو انعدامها أدى بشكل أو بآخر إلى انتشار واتساع الكتاتيب في العراق وذلك لسد النقص الحاصل في المدارس . ففي مدينة بغداد – الكرخ – تحديداً لم تكن سوى مدرسة ابتدائية واحدة بينما كانت هناك خمسة كتاتيب وأكثر من ذلك في منطقة الرصافة[٣] ، وما يقال عن مدينة بغداد يسري أيضاً على المناطق الأخرى من العراق أي الموصل والبصرة وغيرها بل ان بغداد أوفر حظاً من غيرها في هذا المجال إذ لم تكن في مدينة الموصل حتى عام (١٨٨٩م) أي مدرسة ابتدائية كذلك في البصرة . أما مدينة الرمادي فلم تكن هنالك مدرسة ابتدائية حتى مطلع القرن العشرين ، فكانت تعوض عن المدارس بالكتاتيب المنتشرة[٤] فيها وفي المناطق التي ضمن تقسيمها الإداري دون القضاء فلا توجد فيها مدرسة حكومية لذا يلاحظ انتشار الكتاتيب فيها ، ويقدر عدد الكتاتيب في العراق أواخر العهد العثماني بما لا يقل عن أربعمائة كِتاب[٥] .

يتضمن المنهج الدراسي المواد التي تُدرس في الكتاتيب ، تعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب وحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم ، وكان التعليم فيها يجري مجاناً إذ لم تكن الدولة العثمانية تقدم أي مساعدات مالية لها بل كانت مقتصرة على الدعم المادي لبعض أولياء أمور الطلبة . وكان التعليم يجري عادة في بيت المُلا أو الجامع[٦] وإذا ما عدينا الكتاتيب عملية علمية شعبية طوعية أو إرادية . فهي على الرغم من بعض السلبيات التي تصاحب العملية التعليمية فيها فإنها تعكس حيوية ونضج الشعب العراقي واندفاعه طواعية في عملية تعليمية ذاتية لأبنائه وإدراكه أهمية العلم والتعليم في الحياة وديمومة وتقدم الشعوب .

المدارس الدينية :

حلقة تعليمية تواصلت في ديمومتها منذ القرون الهجرية الأولى ، وفي العهد العثماني جاءت المدارس الدينية ملبية لحاجات الدولة العثمانية ومطابقة لأهدافها لاسيما وانها تسعى لإعداد الشعب وتهيئته ليكون موالي لخليفة المسلمين أو السلطان العثماني[٧] . لذا أولت الدولة العثمانية هذه المدارس اهتماماً جيداً ودعمتها مادياً وأدبياً وتبارى السلاطين والولاة والأثرياء إلى إنشاء هكذا مدارس بدافع الإخلاص للدين . فكانت مدن كثيرة في العراق مثل بغداد والموصل وسامراء والنجف وكربلاء وغيرها أراضي خصبة لنمو وانتشار هذه المدارس لاسيما وان مناهجها الدراسية ترمي إلى تجسيد تعاليم الدين وتربية النشأ الجديد على مبادئه فضلاً عن تدريسها علوم اللغة والكلام والفقه والتفسير والصرف والنحو وعلم الحديث والفلسفة والبلاغة والفَلك[٨] .

وكان المنهج التعليمي في المدارس الدينية ينظم على ثلاثة مراحل :

الأولى : السطوح وتشمل دروس اللغة العربية والبلاغة والمنطق .

الثانية : الفضلاء وتشمل دراسة الفقه ومختلف المناهج التي توصل إلى معرفة الأدلة والثبوت والأصول والشرائع والفروض .

الثالثة : الخارجية (البحث الخارجي) ولا تعتمد هذه المرحلة على كُتب خاصة وإنما تقتصر على حضور الطلاب دروساً ومحاضرات عامة تُلقى من أكابر العلماء المعروفين والمشهود بشهرتهم الفكرية والدينية .

وبعد ذلك يُمنح الطالب الإجازة العلمية التي تخول التدريس مستقبلاً[٩] ، ولابد من القول ان للمدارس الدينية أهمية كبيرة في الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الإسلامي وكانت هي المصدر الوحيد الذي يرفد المجتمع الإسلامي آنذاك بما يحتاجه من علماء وأُدباء وموظفين وتجار وغيرهم . ليس ذلك فحسب بل انها تُعد المراجع الأساسية التي ينتظر منها ان تبت في أمور الدين والدنيا[١٠] .

وقد أشارت بعض الإحصائيات إلى أن عدد المدارس الدينية في العراق وصل إلى (١٤٩) مدرسة دينية[١١] .

وهنا لابد من القول ان الأقليات الدينية مثل المسيحية واليهودية الموجودة في العراق هي ايضاً كانت لها مؤسسات تعليمية جمعت بين الكتاتيب والمدارس الدينية . إذ كان لليهود في العراق (المدراش) وفيه يركز التعليم على القضايا الدينية ويُدرّس فيه اللغة العبرية وبعض اللغات الأجنبية .

أما المسيحيون فكانت مدارسهم الدينية متواجدة في الكنائس والأديرة وإن معلميها من القسس والرهبان وغالباً ما تُدرّس دروسهم باللغة العربية أو الكلدانية[١٢] .

وتتمتع المدارس الدينية على العموم بحرية واسعة فيما يخص الطلاب فليس مطلوب منهم أي مؤهلات كما ان لهم الحرية في الاختيار بالنسبة للأساتذة بل وحتى المادة والدوام عادة طوال أيام السنة[١٣] .

تطور العملية التعليمية :

ارتبط تطور العملية التعليمية في العراق بعملية التطور والإصلاح في الدولة العثمانية . وان تخلفت من الناحيتين الزمنية والنوعية عن حركة الإصلاح في مركز الدولة العثمانية . إلاّ ان وجود بعض القادة المُصلحين ساعد في إحداث تغيير لا بأس به في الناحية التعليمية وان هذا التغيير عُدَّ تطوراً كبيراً إذا ما قورنت بحالة العدم التي كانت موجودة في العراق[١٤] .

وبعد ان تبنت الدولة العثمانية خطة الإصلاح أصدر السلطان عبد المجيد (١٨٣٩م – ١٨٦١م) فرماناً إصلاحيا أطلق عليه (خطي شريف كلخانة) سنة (١٨٣٩م) ، وقد عَبَّر هذا الفرمان عن الحاجة الملحة للدولة العثمانية إلى الإصلاح في جميع نواحي الحياة وفيه منح السلطان أمنية الروح والعرض والناموس والمال وإصلاح الجهاز الإداري والقضاء وجباية الأموال فضلاً عن الإصلاح الثقافي وأكد على قبول الطلبة غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية في المدارس الرسمية واعطاء الأقليات غير المسلمة الحق في إنشاء مدارس خاصة بهم على ان تكون تحت إشراف مجالس المعارف[١٥] ، وعلى أثر ذلك شُكلت لجنة سباعية عام (١٨٤٥م) ضمت أبرز الشخصيات العلمية التي تتمتع بمهارة وكفاءة في ذلك الاختصاص . وكُلِفَتْ بدراسة حالة المدارس وتقديم التوصيات اللازمة لدفع العملية التعليمية إلى الأمام .

ووفقاً لذلك التوجيه الإصلاحي تحول ديوان المعارف العمومي إلى وزارة المعارف العمومية التي أخذت على عاتقها إنشاء مدارس حديثة لا تهتم فقط بالأمور الدينية والعلوم النقلية ؛ إنما تُدرّس فيها كافة العلوم العصرية مثل الهندسة والحساب والتاريخ والجغرافية والصحة وغيرها من الدروس وان القائمين على التدريس إنما هم معلمون ليس لهم علاقة بالسلطات الدينية[١٦] .

وفي ٢٠ من أيلول أصدرت وزارة عالي باشا قانون المعارف العام (معرف عمومية نظامنا منامو سي) والذي بموجبه أنشأ نظام مدني متكامل للتعليم الرسمي. ونص ذلك القانون على تقسيم التعليم إلى ثلاثة مراحل[١٧] :

الأولى : الابتدائية – مكاتب الصبيان – مدتها أربع سنوات .

الثانية : المتوسطة – المكاتب الرشدية – مدتها ثلاث سنوات .

الثالثة: الثانوية – المكاتب الإعدادية – مدتها أربع سنوات .

وتضمنت مناهج الدراسة المواضيع التالية :

١- **الابتدائية** / تتضمن : ألف باء ، القرآن الكريم ، التجويد ، علم الحال ، تعليم الكتابة ، مبادئ الحساب ، مختصر التاريخ العثماني ، مختصر الجغرافية ، معلومات نافعة ، أشياء وصحة . أما الأطفال غير المسلمين فيتلقون أصولهم الدينية على يد رؤسائهم الروحانيين .

٢- **المتوسطة** / تتضمن : مبادئ العلوم الدينية ، قواعد اللغة التركية ، الإملاء والإنشاء ، القواعد الفارسية ، القواعد العربية ، علم الحساب ، أصول مسك الدفاتر ، الرسم ، مبادئ الهندسة ، التاريخ العام والتاريخ العثماني ، الجغرافية ، الجمناستك .

٣- **الإعدادية** / تتضمن : اللغة التركية ، مبادئ علم ثروة الأمم ، الاقتصاد ، أصول الحساب ، اللغة الفارسية ، الجغرافية ، الهندسة وعلم المساحة ، القوانين العثمانية ، التاريخ العام ، الفلسفة الطبيعية ، المنطق ، علم المواليد ، البيولوجي ، الكيمياء ، الجبر ، الرسم[١٨] .

ومع هذا كله فان إصدار القوانين وما تبعها من خطوات إصلاحية في الدولة العثمانية لم يُلقِ بظلاله بشكل واضح على الساحة العراقية وبالذات في المجال الثقافي والتعليمي ولم يكن له ذلك الأثر إلا في عهد الوالي مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢)[١٩] ، الذي قام بالعديد من الإصلاحات العامة إذ أسس المعامل العسكرية وشيد المستشفيات ودور العجزة وميتمة وعدة مدارس ومد خط (الترمواي) بين بغداد والكاظمية واهتم بدار الحدادة وأسس معمل للنسيج (النسجانة) لصناعة الملابس العسكرية وإصدار جريدة (جريدة زوراء)[٢٠] .

أما بخصوص المدارس فقد انتشر التعليم الابتدائي في عهده ، وأسس أول مدرسة رشيدية عسكرية في بغداد عام (١٨٦٩م) التي مهدت للدخول في الإعدادية العسكرية ومن ثم الانتماء إلى المدرسة الحربية في استانبول ، ويذكر انه قد أُنشأت أول مدرسة حربية في استانبول عام (١٨٣٤م) وضمت صنفين هما المشاة والخيالة ، وبذلك أُتيح للعراقيين فرصة تبوئهم الرُتب والمناصب العسكرية العالية في الجيش والدولة العثمانية[٢١] .

ان مدة الدراسة في المدرسة الرشدية أربع سنوات يقبل فيها الطلاب اللذين تخرجوا من المدارس الأولية (الصبيان) وتقبل أيضاً اللذين يجيدون قراءة القرآن الكريم ولهم إلمام باللغة التركية وعلم الحساب .

وتضمن المنهج الدراسي دراسة اللغات التركية والعربية والفارسية والفرنسية والتاريخ والجغرافية ، وكان الضباط هم الذين يقومون أو يتولون التدريس فيها ، وهي بمثابة الدراسة المتوسطة حالياً . فإذا تخرج الطالب منها تلقائياً يُقبل في الإعدادية العسكرية .

لقد أُنشأت أول إعدادية عسكرية في بغداد عام (١٨٧٨م) أيام الوالي (عبدالرحمن باشا) ، وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ويدرس فيها الجبر والهندسة المستوية والمثلثات والتاريخ والجغرافيا والرسم وعلم الفلك واللغة التركية والفرنسية والفارسية ودروس الدين[٢٢]

مما تقدم يُلاحظ ان ما يزيد عن ثلاثين عاماً بين إنشاء المدرستين الحربيتين في استانبول وبغداد ، وهذا يعكس حالة التأثير البطيء والتفاوت من الناحية الزمنية لعملية الإصلاح ما بين العاصمة أو مركز الخلافة وبين والأقاليم الأخرى وخاصة العراق .

ولا يفوتني ان اذكر الاستقطاب الكبير للمدارس العسكرية فيما يخص العراقيين فهي فضلاً عن ان نظامها الداخلي وتحمل الحكومة كافة المصاريف يلائم الظروف الاقتصادية المتردية في العراق وان العراقيين وجدوا ظالتهم المنشودة فيها مع الظروف الموضوعية القاسية المحيطة بهم .

أما الجانب الآخر فان للعراقي تراكمات حضارية على مر التاريخ من حيث القوة والقيادة والسيطرة وبالتالي الزعامة وخاصة بعد تخرجهم ضباط لهم ميزاتهم وامتيازاتهم ، فهي بمعنى آخر تلائم نفسية العراقي وتُرضي طموحاته ولهذا تميز العراقيون في المجال العسكري والقيادي ووصل البعض منهم إلى مناصب عالية وقيادة في الدولة العثمانية والجيش العثماني[٢٣] . هذا فيما يخص المدارس الدينية – الملكية – فالتعليم الأبتدائي وكما يشير ستيفن همسلي لونكرنك في كتابه أربعة قرون من تاريخ العراق ان التعليم الابتدائي في العراق وفي عهد مدحت باشا كان له انتشار واسع وكان هناك اهتماماً كبيراً في عهد مدحت باشا بهذه المدارس مما أدى إلى انتشارها[٢٤] .

إلا ان عبدالرزاق الهلالي والدكتور إبراهيم خليل أحمد لهم رؤيا تختلف عن رأي لونكرنك السابق الذكر فهما لا يريان ان مدحت باشا اهتم بالتعليم الابتدائي ولم ينتشر ذلك التعليم في عهده في العراق[٢٥] . أيدت ذلك الرأي جريدة الزوراء العراقية الصادرة في ذلك الوقت والتي تشكو من اهمال تلك المدارس ، وان ما تم فتحه قليل وليس بالمستوى المطلوب وان القائمين بالتعليم في تلك المدارس غير مؤهلين علميا للتدريس ، وان تعليم الابناء يتم في اغلب الاحيان في المساجد كذلك في البصرة والموصل ، ففي الأخيرة يتم التعليم في جامع باب الطوب ومسجد الجامع بكر أفندي[٢٦] . وحقيقة ذلك التباين في الرؤى يعود إلى ان لونكرنك ؛ كباحث أجنبي يرى ان ما أُنجز في عهد مدحت باشا لهو الكثير وخير من حالة العدم الموجودة في سابق عهده .

أما الرؤيا الثانية أو العراقية فهي تتطلع وتسعى الى التطور السريع لسد الحاجة الماسة للمجتمع العراقي .

مهما يكن من أمر فلم يلق التعليم الابتدائي اهتماماً وانتشاراً بعد مدحت باشا إلا في عام (١٨٨٩م) ، إذ افتتحت العديد من المدارس الابتدائية في بغداد في تلك السنة ، وقد بلغ عدد المدارس الابتدائية في بغداد عام (١٩٠٥م) أحدى وأربعون مدرسة ابتدائية وكانت كربلاء والديوانية تابعة لها ، موزعة كالآتي[٢٧] :

- اربعة في بغداد وأخرى للبنات .
- احدى وعشرون مدرسة في أقضية بغداد ونواحيها .
- خمسة عشر مدرسة في كربلاء والديوانية .

وفي مدينة الموصل وجدت مدرسة ابتدائية واحدة عام (١٨٦١م)[٢٨] . هذا فضلاً عن بعض الصفوف الابتدائية في ثلاث مدارس رشدية .

ولا بد من التنويه إلى انه في حالة عدم وجود مدرسة ابتدائية فهناك بعض الخطوات التعليمية قد تعوض عن الدراسة الابتدائية ، فمثلاً كان ختم القرآن الكريم على يد الملا ، يؤهل الشخص الذي ختم القرآن للدخول إلى المدرسة الرشدية دون المرور بالابتدائية[٢٩] .

وقد بلغت المدارس الابتدائية في مدينة الموصل عام (١٩٠٥م) ؛ وكانت كركوك والسليمانية تابعة لولاية الموصل ، ما يقارب ثلاثين مدرسة ابتدائية موزعة كالآتي :

- مدرستان في مدينة الموصل .
- اثنا عشر مدرسة في أقضيتها ونواحيها .
- ستة عشر مدرسة في كركوك والسليمانية .

اما في ولاية البصرة فقد بلغت سبعة وعشرين ، وكانت العمارة والناصرية تابعتين لها فكانت كالآتي :

- اثنا عشر مدرسة في البصرة وأقضيتها .
- خمسة عشر مدرسة في العمارة والناصرية وأقضيتها ونواحيها .

كان ملاك المدرسة الابتدائية على العموم معلم واحد فقط[٣٠] .

المرحلة الرشدية :

هي المرحلة الثانية بعد الابتدائية ، وقد افتتحت أول مدرسة رشدية ملكية في بغداد عام (١٨٧٠م) ، وأولت الدولة العثمانية تلك المدارس اهتماماً كبيراً خاصة وان خريجي هذه المدارس هم المؤهلين فعلا للعمل في دوائر الدولة وشَغل الوظائف الحكومية . وعلى هذا الاساس نلاحظ ان الموظفين في العراق هم مواطنون عراقيون تخرجوا من المدارس الرشدية[٣١]، وأخذت تلك المدارس بالنمو والانتشار ، ففي عام (١٩٠٠م) أصبح عددها في

العراق سبعة عشر مدرسة رشدية ، وفي عام (١٩٠٥م) تضاعف عددها مرة ونصف تقريباً إذ أصبح عددها (٤١) أحدى وأربعون مدرسة في عموم العراق موزعة كالآتي[٣٢] :

- في بغداد واحدة وفي أقضيتها ونواحيها عشرة مدارس وفي لوائي كربلاء والديوانية وأقضيتها ثمانية مدارس .
- في مدينة الموصل ونواحيها خمسة مدارس رشدية وفي كركوك والسليمانية تسع مدارس .
- في مدينة البصرة وأقضيتها مدرستان وفي العمارة والناصرية خمس مدارس .

من جهة أخرى افتتحت في عام (١٨٧١م) أول مدرسة مهنية في العراق وهي مدرسة الصنائع التي عُرفت باسم (مكتب النسيبة) ، وضمت العديد من الأقسام والاختصاصات مثل الحدادة والنسيج وصناعة الأحذية وغيرها . وكان عدد الطلاب المقبولين فيها (١٤٤) طالباً

جُهزت المدرسة بالمكائن والألات اللازمة لتجسيد العملية التعليمية عملياً ، وتواصلاً في تحقيق غايات وأهداف تلك المدرسة فقد أمر مدحت باشا بان تدفع المدرسة لطلابها المتخرجين قرضاً مالياً من خزانتها كي يستطيع الطالب المتخرج ان يشتري الأدوات اللازمة لحرفته[٣٣] .

وقامت مدرسة الصنائع في بغداد عام (١٩٠٢م) بإعمار جسر بغداد بعد ان أصابه التخريب . وأسست الدولة العثمانية مدرستين أشبه بمدرسة الصنائع في بغداد وذلك في الموصل وكركوك .

وتأسيساً على ما تقدم يلاحظ ان إصلاحات مدحت باشا كانت خطوات إصلاحية عملية يستفاد منها آنيا أو على المدى المنظور إذا صح التعبير ، في سبيل رفد الواقع المتردي باصلاحات تنعش ولو جزء يسير من أي مساحة يراد لها الاصلاح وخاصة في مجال انشاء المدارس والمعاهد الصناعية والمستشفيات والملاجئ .

وعلى ضوء ذلك فان اصلاحته هي اصلاحات واقعية وعملية أُريد بها التطور والتقدم على الرغم من الحالات السلبية التي رافقت تطبيث تلك الاصلاحات ، مثال ذلك : فأن التعليم لم يُعَد له إعداداً جيداً ولم يهيئ له الكادر التدريسي المؤهل فضلاً عن النقص المستديم في المستلزمات الحيوية للعملية التعليمية .

ومع هذا فان اصلاحات مدحت باشا كانت الاساس الذي لم يبنى عليه إلا بعد حين وسيما وان من خلفه لم يكن يحمل الأفكار والعزيمة ذاتها في الإصلاح[٣٤] .

أما فيما يخص المرحلة الثالثة من التعليم وهي المرحلة الإعدادية ، فقد افتتحت أول مدرسة إعدادي في بغداد عام (١٨٧٣م) ، في عهد الوالي رديف باشا (١٨٧٢– ١٩٧٤م) ، ولم تفتح أي إعدادية أخرى في العراق إلى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، فقد افتتحت في

الموصل اعدادية عام (١٨٩٩م) ، وكانت تحوي خمسة صفوف وكان عدد طلابها (٣٤١) طالباً ، بينما كان عدد طلاب إعدادية بغداد في السنة ذاتها (١٠٧) طالب[٣٥] .

أقتصر التعليم خلال تلك المرحلة على البنين . أما فيما يخص الإناث فقد افتتحت أول مدرسة للبنات في العراق عام (١٨٩٩م) في عهد نافع باشا (١٨٩٩– ١٩٠٢م) ، وكان عدد الطالبات عند افتتاحها (٩٥) طالبة . أما قبل افتتاح تلك المدرسة فكانت البنات يدرسن في مدارس للبنين[٣٦] .

وتضمن منهج الدراسة في مدارس البنات المناهج التالية :

الدين ، القرآن الكريم ، الحساب ، الجغرافية العثمانية ، التاريخ العثماني ، واللغات التركية والعربية والفرنسية والفارسية ، النقش والتطريز ، وحُسن الخط .

ومما يذكر فقد كانت هناك صعوبات في تهيئة الكادر التدريسي الخاص لتدريس البنات . لذا ارتأت السلطات الاستعانة بزوجات الضباط والموظفين الأتراك وزوجات بعض الأجانب للاستفادة منهن بتدريس اللغات والتطريز وغيرها من الفنون البيتية[٣٧] .

ونتيجة للتوسع في التعليم فقد افتتحت السلطات ثلاث دور للمعلمين في سبيل تهيئة الكادر التدريسي وانجاح عملية التعليم في العراق ، إذ كان الأول في بغداد والثاني في الموصل والثالث في البصرة في عام (١٩٠٠م) ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات زيدت فيما بعد إلى أربع سنوات بعد الرشدية[٣٨] .

أما بعد عام (١٩٠٨م) أي عندما استولى الاتحاديون (جمعية الاتحاد والترقي) على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية فقد اهتموا اهتماماً واضحاً بالمدارس الحكومية لادراكها ان المدارس والصحافة هما خير وسيلتين لبث ونشر أفكارهم ، وانهما خير منبر إعلامي ودعائي لمبادئهم ومعتقداتهم ، فقد أسسوا مدارس ابتدائية تكون تابعة لفروع جمعيتهم واختاروا لها معلمين من أعضاء جمعيتهم يعلمون النشأ الجديد مبادئ وأهداف جمعية الاتحاد والترقي وتكون لغة التدريس حصراً اللغة التركية[٣٩] .

طغت دعايات جمعية الاتحاد والترقي على أفعالها لاسيما في مجال التعليم إذ لم يشهد العراق إلا توسع بسيط في فتح المدارس سواء الابتدائية أو الرشدية ، بعكس تعليم البنات الذي لقي اهتماماً أكبر ، وفتحت عدة مدارس في بغداد وعنة والسماوة والكاظمية وخانقين وكربلاء والحلة والديوانية[٤٠] .

شهدت فترة حكم الوالي ناظم باشا (١٩١٠ – ١٩١١م) افتتاح العديد من المدارس الرسمية في انحاء مختلفة من العراق ، إلا انه لم تصبح اللغة العربية لغة التدريس في العراق

إلا في سنة (١٩١٢م) ، وذلك في المدارس الابتدائية فقط ، وتراجعت السلطة العثمانية عن ذلك واستثنت مادتي التاريخ والجغرافية وجعلت لغة التدريس لهما اللغة التركية .

وفي عام (١٩١٣م) ، واستجابة للمطالب القومية للمؤتمر العربي المنعقد في باريس سمحت بان يكون التدريس في المدارس الاعدادية ودور المعلمين وكلية الحقوق باللغة العربية غير انها أيضاً استثنت مادتي التاريخ والجغرافية على ان تُدرس باللغة التركية[٤١] .

المدارس الخاصة الأهلية :

لابد من التطرق الى تلك المدارس التي نهضت بدور قليل في عملية تطوير العملية التربوية في العراق ، وهي على العموم مدارس خاصة بالاديان والطوائف الأخرى ، وان كان هنالك تحفظ حول مواردها المالية ، وهي دائماً تأتي من خارج البلاد ، وان تلك المصادر التي رفدت تلك المدارس من دون شك تتدخل في حيثيات وشؤون تلك المدارس الخاصة وفي الغالب لا يترددون من إظهار أو بسط نفوذهم عليها وذلك في تكرار عملية تفتيشها بين الحين والآخر[٤٢] . وقد أسهمت تلك المدارس الخاصة والأهلية في تطوير العملية التعليمية في العراق ، وعملت على خدمة التراث العربي واللغة العربية وأنها كانت حلقة وصل مع الحضارة الغربية الحديثة .

ومن تلك المدارس :

١- مدرسة اللاتين : افتتحت عام (١٨٢٨م) ، على يد عمانوئيل يابة الكرملي قنصل فرنسا في بغداد ، وتطورت مع الزمن إذ أصبحت من المدارس المهمة في بغداد عام (١٨٩٣م) ، وبلغ عدد طلابها (٣٠٠) طالب واشتملت فيها الدراسة على المراحل الثلاثة (الابتدائية والرشدية والإعدادية) ، ويُعد الأب (انستاس مار الكرملي) من أبرز معلميها وتولى إدارتها عام (١٨٩٧م) . تضمن المنهج الدراسي فيها على (اللغة العربيه والفرنسية والتركية والانكليزية ، الحساب ، الهندسة ، المساحة ، الجبر ، الصرف ، النحو ، البلاغة ، مبادئ الأمور الدينية). ولم تقتصر الدراسة فيها على المسيحين بل درس فيها العديد من المسلمين واستمرت الدراسة فيها حتى عام (١٩١٤م)[٤٣] .

٢- مدرسة الدومنيكان الابتدائية : تأسست عام (١٨٥٤م) في مدينة الموصل أصبح عدد طلابها سنة (١٨٧٥م) مائة واثنان وعشرون طالباً .

٣- مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكي : تأسست عام (١٨٧٨م) من قِبل الطوائف الكاثوليكية الكلدان ، السريان ، الأرمن في مدينة بغداد ، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات وتضمن المنهج الدراسي على (الدين ، اللغة العربية والفرنسية والتركية ، الحساب ، الجغرافية) .

٤- أنشأت طائفة البروتستانت مدرستان وذلك في نهاية القرن التاسع عشر الأولى للبنين والثانية للبنات ، وكان عدد الطلاب في مدرسة البنين (٤٠) طالباً ، وعدد الطالبات في مدرسة البنات (٢٨) طالبة ، وذلك عام (١٨٩٨م)[٤٤] .

ومن الملاحظ على المدارس المسيحية اقبال البنات عليها وانهم اهتموا بفتح مدارس خاصة للبنات ، فقد أسس الآباء الدومنيكان عام (١٨٧٣م) في مدينة الموصل مدرسة (أخوات المحبة) .

وأنشأ الآباء الكرملين عام (١٨٩٤م) مدرسة ابتدائية مختلطة مجموع الطلبة (٤٠٠) طالب وطالبة ، منهم (٣٠٠) طالبة و(١٠٠) طالب ، هذا فضلاً عن إنشائهم عدة مدارس للبنات منها مدرسة ثالثة للبنات اليتيمات ، وقد بلغ عدد طلاب تلك المدارس عام (١٩٠٢م) ثمانمائة طالبة .

كان معظم الكادر التدريبي فيها من الراهبات ، أما منهجها الدراسي فتضمن تدريس (اللغات العربية والفرنسية والانكليزية والهندية،الجبر، الرسم ، البيانو)[٤٥].

أما اصحاب الديانة اليهودية في العراق فقد أسسوا عام (١٨٦٥م) مدرسة الاليانس الفرنسية ، إذ كان الاتحاد الفرنسي الاسرائيلي هو الذي تولى الاشراف عليها وبمعاونة الجمعية اليهودية في لندن واللجنة اليهودية في بغداد ، وقد دعمها اليهود مادياً ومعنوياً ، وشيد (البرت داود ساسون) لها بناية ضخمة أطلق عليها أسمه فسميت بعدئذ (السير ساسون) ، وتضمن المنهج الدراسي فيها على المفردات التالية (اللغة العربية والفرنسية والانكليزية والتركية ، التاريخ ، الجغرافية ، الرياضيات ، الطبيعيات ، الكيمياء) .

هذا وأنشأت الجالية اليهودية مدرسة للبنات عام (١٨٩٣م) ، أُطلق عليها فيما بعد أسم (مكتب لورا خضوري للبنات)[٤٦] .

ولا يفوتني ان أذكر ان ((أخوات التقدمة)) أفتتحت أول روضة في العراق عام (١٨٧٥م) قُبِلَ فيها الأطفال من عُمر (٣- ٦) سنوات[٤٧] .

مما تقدم يلاحظ بان المنهاج الدراسي للمدارس الخاصة التي تخص الطوائف والأديان غير المسلمة ، جميعها تضمن أو تلتزم باللغة العربية كمادة اساسية في المنهج الدراسي وذلك عكس المدارس الحكومية التي افتتحتها الدولة العثمانية والتي تدرس فيها اللغة التركية فقط .

ومن الطبيعي ان تلك الفقرة تُسجل لها – أي للمدارس المختصة – على الرغم من التحفظ الموجود حول مواردها المالية .

من المدارس الاهلية في العراق أيضاً هي لعموم العراقيين مدرسة (تذكار الحرية) ، والتي افتُتحت في البصرة (٢٧/ت٢/ ١٩٠٨م) ، وكان تأسيسها على يد سليمان فيضي[٤٨] .

وتُعد أول مدرسة إعدادية في البصرة أهلية في العراق وكانت الدراسة فيها بادئ الأمر باللغة العربية وأسمها يُكتب باللغة التركية (يادوكار حريت) وذلك حسب الاتفاق الحاصل بين سليمان فيضي مع والي البصرة . إلا ان ذلك لم يدم طويلا إذ تدخلت جمعية الاتحاد والترقي التي أصرت على اطلاق اسمها على المدرسة وان تكون اللغة التركية هي الاساس بدلا من العربية وفعلا تم ذلك ، وهذا ما جعل أهالي البصرة يعزفون عن إدخال أبنائهم إليها وأصبح عددهم في السنة التالية (١٦٠) طالباً ، وتضائل العدد إلى أدنى قدر ممكن مما دفع بالجمعية إلى إغلاقها ووضع بناياتها تحت تصرفهم وجعلها مقراً لجمعيتهم[٤٩] .

اما المدرسة الأهلية الثانية فهي مدرسة الترقي الجعفري العثماني والتي افتتحها في الثاني عشر من كانون الأول(١٩٠٨م)،وقد أسسها نخبة من المثقفين والتجار العراقيين أمثال علي البازركان وجعفر أبو التمن ورؤوف القطان وغيرهم

واشتملت الدارسة فيها تدريجيا على المراحل الثلاث (الابتدائية والرشدية والإعدادية) ، وقد عُين الشيخ شُكر الله مديراً لها وهو لا يملك شهادة مدرسية سوى انه دَرَسَ على يد العلامة محمود شكري الآلوسي الذي بدوره منحه إجازة للتدريس[٥٠] .

المدارس الأجنبية افتُتحت في النجف الأشرف مدرستان هما(المدرسة العلوية والمدرسة الرضوية) ، وقد أسسها العديد من التجار ورجال الدين الإيرانيين[٥١] .

وأنشأت جمعية الاتحاد الاسرائيلي الفرنسي التقدمي (اليانس) عدة مدارس في عموم العراق منها مدرسة ابتدائية للبنين في بغداد وأخرى للبنات وثالثة في الموصل ورابعة في العمارة[٥٢] .اما في مدينة البصرة فقد افتتحت البعثة العربية التبشيرية ، وهي أمريكية عام (١٩١٢م) ، مدرستين للبنين وأخرى للبنات وهي مدرسة (الرجاء العالي) ومدرسة (الرجاء العالي للبنات)[٥٣] .

ويتضح مما تقدم ان التعليم في العراق لم يسير بمعزل عن سياسة الدولة العثمانية بل كان مرتبطاً بها اشد الارتباط وانه تابع لسياسة الدولة العثمانية .

إذ إن وزارة المعارف هي التي تحدد مفردات المنهج وترصد الميزانية المطلوبة تهيئ الكادر التدريسي والإدارة وغيرها ، وما على مديريات المعارف سوى تنفيذ واجبات الوزارة وقد عكس ذلك طبيعة النظام المركزي المُتبع في ميدان التعليم لدى الدولة العثمانية .

اما مجموع المدارس الموجودة في العراق عام (١٩١٥م) فقد بلغ :

١- (١٦٥) مدرسة ابتدائية في العراق منها (٧٨) في بغداد و(٥٦) في الموصل و(٣١) في البصرة .
٢- (٤) مدارس ثانوية في بغداد وكركوك والموصل والبصرة .
٣- مدرسة واحدة للحقوق في بغداد.

الخاتمـــــــــــــــــة

بدأت حركة الاصلاح في الدولة العثمانية بعد زوال العقبة الرئيسية المعارضة لأي حركة إصلاحية وتمثلت تلك العقبة – بالجيش الانكشاري – وقضاء السلطان محمود الثاني عليه عام (١٨٢٦م) ، ومن ثم سارت خطى الاصلاح بثبات وتقدم إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر . وقد ركزت الدولة العثمانية في البدء على حاضرتها وبالذات مركز الدولة ، وبعد ذلك إلى أقاليمها . لذا تأخر وصول حركة الاصلاح الى العراق لما بعد النصف الثاني من القرن المذكور .

ومما يُذكر ان الدولة العثمانية لم تكن تُعير التعليم اهمية كبيرة ، إذ كانت تُعده من واجبات الأهالي ، هم يقومون به أو يتركونه ؛ هذا شأنهم .

لذلك لم يُهمل العراقيون واجباتهم ولم يقطعوا صلة العلم والتعلم على مَرْ القرون ، فكان الجامع هو المدرسة ، والعالم أو الشيخ أو الملا هو المعلم ، ومنهج الدرس محدد بدروس الدين وقراءة القرآن وتفسيره وتعليم القراءة والكتابة .

ان العراقيين كان لهم الاستعداد الكافي لتقبل حركة إصلاح التعليم . فكانت البداية هي الكتاتيب ، والتي كان مقرها بيت – الملة – أو الجامع ، والدروس هي دروس ما يتعلق بالدين الاسلامي وقراءة القرآن .

وبعد افتتاح المدارس الرسمية الملكية والعسكرية انظم إليها أبناء العراق ، وإذا كان هنالك عزوف عن الانخراط في التعليم فيعود إلى واحد من أهم تلك الأسباب ألا وهو ان لغة الدرس في المدارس الحكومية هي اللغة التركية ، والانكى من ذلك ان قواعد اللغة العربية تُدرس باللغة التركية . إلا انه بعدما أصبحت لغة التعليم اللغة العربية ، نلاحظ تضاعف أعداد الطلبة أضعافاً مضاعفة ، ومن أسباب العزوف أيضاً تدني الحالة الاقتصادية للشعب العراقي آنذاك هذا فضلا عن تأخر حالة الوعي الاجتماعي والثقافي .

الهوامـــــش

١- عبدالعزيز سليمان فؤاد ، الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣، ص١٥٧.

٢- عبدالرزاق الحسني ، العراق فيد دوري الاحتلال والانتداب ،ج١،صيدا ،د.ت ،ص٢٧٩ .

٣- عبدالعزيز القصاب ، من ذكرياتي ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص١٠ .

٤- إبراهيم الراوي ، من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص٩ .

٥- ابراهيم خليل أحمد ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩- ١٩٣٢ ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ص٢٦ .

٦- ساطع الحصري ، مذكراتي في العراق ، ج١ ، ٩٢١- ١٩٢٧ ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص٤٣ .

٧- خالد الهاشمي ، تجديد مناهج إعداد المعلمين في العراق ، ترجمة عبدالعزيز البسام ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص٦٦ .

٨- سعيد الديوة جي ، مدارس الموصل في العهد العثماني ، الموصل ، ١٩٦٤ ، ص٢ .

٩- نخبة من الباحثين العراقيين ، حضارة العراق ، ج١، بغداد، ١٩٨٥ ، ص٢٩٣ .

١٠- محمد عبدالعزيز الذهب ، التربية والمتغيرات الاجتماعية في الوطن العربي ، بغداد ٢٠٠٢ ، ص٦٧ ، ابراهيم الوائلي ، الشعر الساسي العراقي في القرن التاسع عشر ، بغداد ١٩٨٥ ، ص٢٩٣ .

١١- صالح فليح حسن ، جغرافية التعليم الابتدائي في العراق ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص١٠٢ .

١٢- سليمان الصايغ ، تاريخ الموصل ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص٣٢٧ .

١٣- عبدالله فهد النفسي ، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص٥٣ .

١٤- ستيفن هسلي لونكريك ، أربع قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر الخياط ، ط٣ ، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص٣٢٢ .

١٥- سليمان سليم الطراونة ، دور السلطان عبدالحميد الثاني في مواجهة الهجرات اليهودية والمخططات الصهيونية اتجاه فلسطين ، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة الى معهد التاريخ العربي والتراث العلمي ، بغداد ، ٢٠٠٢ ، ص٦ .

١٦- شفيق جحا ، التنظيمات أو الحركة للاصلاح في الامبراطورية العثمانية ١٨٥٦- ١٨٧٦م ، مجلة الابحاث ، السنة ، ج٢ ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص١١٠ .

١٧- ابراهيم خليل احمد ، تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩-١٩٣٢) البصرة ، ١٩٨٢ ، ص٣٣ .

١٨- المصدر نفسه ، ص٣٤-٣٥ .

١٩- مدحت باشا ، والي بغداد العثماني من ١٨٦٩- ١٨٧٢م ، من مواليد الاستانة وهو من الولاة الاصلاحيين المجددين ، قام باصلاحات كثيرة ومهمة في العراق سواء في النظام الاداري او في تقديم الخدمات العامة ولحاجة بناء المدارس ، ينظر لونكريك ، المصدر السابق ، ص٣٠٢ .

٢٠- المصدر نفسه ، ص٣٠٢ .

٢١- وزارة الدفاع العراقية وتاريخ القوات المسلحة العراقية ، ج١ ،بغداد ، ١٩٨٦ ، ص١٤٤ ، وقد أُنشأت مدرسة رشدية عسكرية في مدينة السليمانية عام ١٨٩٣م .

٢٢- المصدر نفسه ، ص١٤٦-١٤٧ .

٢٣- حازم مجيد احمد الدوري ، دور النخبة العسكرية العراقية في تطوير الفكر القومي في العراق من (١٩٠٨- ١٩٤١م) ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) مقدمة إلى مجلس معهد التاريخ العربي ، بغداد ، ٢٠٠٣ ، ص٢٦-٢٧ .

٢٤- ستيفن همسلي لونكريك ، المصدر السابق ، ص٣٠٤ .

٢٥- عبدالرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (١٦٣٨- ١٩١٧م) ، بغداد ، ١٩٥٧ ، ص٢٤٥ ، إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٣٩ .

٢٦- جريدة الزوراء ، ١٠ جمادى الآخر ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، سعيد الديوهجي ، المصدر السابق ،ص٤٠ – ٤١ .

٢٧- سليمان فضي ، في غمدة النضال ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص٥٨ .

٢٨- سليمان صايغ ، المصدر السابق ، ص٣٢٣ .

٢٩- عدنان الباجة جي ، مزاحم الباجة جي ، سيرة وذكريات ، لندن ، د.ت ، ص١٩ .

٣٠- سليمان فيضي ، المصر السابق ، ص٥٨- ٥٩ .

٣١- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٧ ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ص٤٣ ، إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٤٤ .

٣٢- سليمان فيضي ، المصدر السابق ، ص٥٨- ٥٩ .

٣٣- جاسم الحياني ، التعليم الصناعي في العراق ، واقعه ، مشكلاته ، مطالب نموه ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص٦ ، عبدالرحمن البزاز ، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال ، ط٣، بغداد ، ١٩١٧ ، ص٣٥ .

٣٤- عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٨ ، بغداد ، ١٩٥٦ ، ص١٠ .

٣٥- المصدر نفسه ، ص٢١ .

٣٦- سليمان فيضي ، المصدر السابق ، ص٥٨ ، إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٤٤ .

٣٧- عبدالرزاق الهلالي ، المصدر السابق ، ص١٦٠ .

٣٨- حنان عيسى الجبوري ، مشكلات إدارة المدرسة الثانوية في العراق ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص٨٣ .

٣٩- المصدر نفسه ، ص١٨٢ .

٤٠- توفيق على برو ، المصدر السابق ، ص٨١ .

٤١- حنان عيسى الجبوري ، المصدر السابق ، ص٣٧ .

٤٢- إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٥٧ .

٤٣- بيير دي فوسيل ، الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤- ١٩١٤م) ، ترجمة أكرم فاضل ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص١٤٦ .

٤٤- عبدالرزاق الهلالي ، المصدر السابق ، ص٢٠١ .

٤٥- رافائيل بطي إسحاق ، تاريخ نصارى العراق ، بغداد ، ١٩٤٨ ، ص١٤٤ ، عبدالرزاق الهلالي ، المصدر السابق ، ص٢٠٣ .

٤٦– المصدر نفسه ، ص٢٠١ .

٤٧– نفسه ، ص٢٠٣ .

٤٨– إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

٤٩–سليمان فيضي : محامي موصلي سكن البصرة آنذاك ، يعمل في الصحافة وكان له دور واضح في القضايا الوطنية ، وأنشأ هذه المدرسة على غرار مدارس بيروت الأهلية .

٥٠– سليمان فيضي ، المصدر السابق ، ص٦٧– ٧١ .

٥١– للإطلاع على كيفية إنشاء المدرسة ينظر : علي البازركان، الوقائع الحقيقية للثورة العراقية ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص٤٣– ٥٠ .

٥٢– جعفر الخليل ، موسوعة العتبات المقدسة ، قسم النجف ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص١٧١– ١٨١ .

٥٣– يوسف رزق الله غُنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، بغداد ، ١٩٢١ ، ص١٧٧ .

٥٤– إبراهيم خليل أحمد ، المصدر السابق ، ص٥٥ .

٥٥– عبدالرزاق الهلالي ، تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحـــتلال البريطـــاني ١٩١٤ – ١٩٢١ ، بغداد ، ص١٨–١٩ .